حب التعليم خطر كبير...
ابتعد عنه يا أخي الحبيب حيثما وُجد،
واهرب منه على قدر ما تستطيع...
إن كنت حقًا تمشي في طريق

انطلاق الروح[1]

إنك تريد أن تُعلِّم الناس. ولكن أي شيء تريد أن تُعلِّمهم؟

ألست معي يا أخي العزيز في أننا لم ننضج بعد، ولم نتعلم بعد. هناك أشياء نفهمها من وجهة نظر واحدة، فنسيء فهمها. وعندما ندفع بأنفسنا لتعليم الناس، لا نُعلِّمهم الدين كما هو، وإنما كما نفهمه نحن، وفي سن معينة، ودرجة روحية وعقلية معينة. وقد نكبر في السن والروح والعقل، ونفهم الدين فهمًا آخر غير فهمنا له اليوم، فماذا يكون من أمر الناس الذين علمناهم، قبلاً؟!

لذلك ولغيره، يقول القديس يعقوب الرسول في رسالته: "لاَ تَكُونُوا مُعَلِّمِينَ كَثِيرِينَ يَا إِخْوَتِي، عَالِمِينَ أَنَّنَا نَأْخُذُ دَيْنُونَةً أَعْظَمَ! لأَنَّنَا فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ نَعْثُرُ جَمِيعُنَا" (يع٣: ١، ٢).

وهكذا نسمع إرميا يقول لله: "لا أعرف أن أتكلم، لأني ولد" (إر ١: ٦). ويقول إشعياء النبي عن نفسه إنه "إنسان نجس الشفتين" (إش٦: ٥). ونجد القديس باخوميوس يأتون إليه يطلبون كلمة تعليم، فلا يتحدث، ولكن يدفع إليهم بتلميذه تادرس، فيتحدث روح الله على لسان هذا التلميذ القديس. وأحد الآباء، وهو شيخ، يأتي إليه أخ ليأخذ تعليمًا، فيقول له: "امكث في قلايتك وهي تعلمك كل شيء"، فيرجع الأخ منتفعًا... قصص كثيرة، اقرأها يا أخي بنفسك، وانظر أي درس يعطيك الله عن طريقها: ولي ملاحظة قبل أن أترك هذه النقطة، وهي أن تعاليم كثيرة للآباء القديسين وصلت إلينا عن أحد طريقين: إما أن الأب الشيخ كان، في أثناء حديثه مع الإخوة، يتناول راهب صفحة ويدوّن ما يقوله الشيخ، وإما أن الأب كان يسجل تأملات له لمنفعته، فيجدونها في قلايته بعد نياحته وينتفعون بها.

هناك يا أخي الحبيب فرق واسع جدًا بين التعليم وحب التعليم: التعليم دعا إليه الكتاب المقدس، وعهد به إلى أشخاص معينين، أما حب التعليم ففيه خطر كبير، وفي أحيان كثيرة يكون شيطانًا متنكرًا.. مع حب التعليم يأتي، في كثير من الأحيان، إحساس خفي أو ظاهر بالجدارة الشخصية، وبالامتياز عن الآخرين. وكلما اتسع عند الشخص نطاق التعليم كبر عنده هذا الإحساس، حتى ليدخل إلى الكنيسة أحيانًا لا لينتفع، بل لينتقد، ويقيم من نفسه معلمًا للمعلمين. إنه لا يأخذ أبدًا، وإنما يعطي باستمرار، ومثل هذا الشخص الذي لا يأخذ يأتي عليه وقت يجف فيه، ولا يعود لديه شيء ليعطيه...

أما الآباء فكانوا على عكس هذا تمامًا. كانوا يتعلمون باستمرار، ويأخذون نفعًا من كل شيء. كان أنطونيوس العظيم يأخذ تعليمًا من امرأة "لا تستحي أن تخلع ثيابها لتستحم، أمام راهب". ومكاريوس أب برية شيهيت كلها يأخذ تعليمًا

[1] نظير جيد "انطلاق الروح"، مجلة مدارس الأحد، السنة السابعة، العدد الرابع، أبريل ١٩٥٣م.

من صبي صغير. وأرسانيوس الذي درس حكمة اليونان والرومان، يتعلم من مصري أمي. هؤلاء الآباء كانت أرواحهم تطوف كالنحلة النشيطة، فتجني من كل زهرة شهدًا...!!

هناك خطورة أخرى في حب التعليم، ذكرني بها إنسان "غيور" شغله التعليم عن نفسه: كان يقرأ الكتاب المقدس لا لينتفع، وإنما ليُحضِّر درسًا. ويحسن إلى الفقراء لا لأنه يحبهم، وإنما ليكون قدوة للناس. ويحترس في تصرفاته لا لأنه يؤمن بما يفعله، وإنما لكي لا يعثر الآخرين. ويجلس إلى الناس لا ليقتبس من أرواحهم شيئًا، وإنما ليمتحن حديثهم "كأستاذ"، ثم يلقي بحكمة شارحًا الأوضاع السليمة. بل قال مرة إنه كان يقف للصلاة، فإذا ما لمسته روح الله، وشعر في الصلاة بشيء، أو سبحت تأملاته في شيء، يقطع صلاته وجلس ليسجل هذه الاختبارات ليُعلِّم بها الناس. لقد انقلبت وسائط النعمة عند هذا الإنسان، وأصبح التعليم عنده هو كل شيء.

همسة أخرى أريد أن أهمسها في أذنك الحبيبة إلى قلبي، وهي: "أي شيء ستُعلِّمه للناس؟ أهو الدين؟ هل تظن الدين مجرد معارف يملأ بها الإنسان عقله؟ أخشى ما أخشاه، يا صديقي المجاهد، أن طريقة بعض الناس ستحوِّل الدين إلى علم يدرسونه ويُمتحنون فيه كسائر العلوم، وما الدين إلا روح وحياة، كما تعرف".

قال لي: "ولكني معلم في الكنيسة، فماذا أعمل؟"، قلت له: "حية هي روحك يا أخي الحبيب. إنك لا تُعلِّم تلك النفوس، وإنما تحبها. وهذه الأرواح التي تراها منطلقة حواليك، لم تُطلقها التعاليم، وإنما المحبة، المحبة التي "لا تسقط أبدًا"، لأنها الله.